الوحدة العربية والأدب القومي

نسمع من المجددين كل حين دعوة إلى إيجاد أدب قومي ، يحدثنا عما يدور في أفئدتنا من خواطر وآمال ، ويصف لنا البيئة التي نعيش فيها ، ونحيا بينها ، ويرسم لنا بريشته طبيعتنا لمشرقة الزاهية . ونسمع كذلك صوت الوحدة العربية يدعو مصر إلى تبوؤ منصب الزعامة للبلاد العربية الشقيقة ، ويخيل بادىء ذي بدء أن الدعوتين متنافرتان ، وأن تحقيق إحداهما يودي بالثانية ، ولذلك نرى في الأقطار العربية المجاورة استنكاراً لفكرة الأدب القومي حرصاً على الوحدة والجامعة . وأريد في هذه الكلمة أن أبين بجلاء ووضوح تضامن الفكرتين وتآزرهما معاً على إنهاض البلاد العربية والسير بها إلى الأمام مع التكاتف والارتباط .

نرى الأدب القومي لا يقصد أكثر من أن يتحدث المرء عما يجول بقلبه ، ويحيط به من بيئة طبيعية أو اجتماعية ، ولا يرمي إلى أن نعيش في معزل عن جاراتنا اللاتي تتصل بهن ، وتربطنا معهن : وحدة الآمال ، ووحدة اللغة ، ووحدة الدين . أما هؤلاء المغالون الذين يدعوننا إلى أن نتغلغل في آدابنا حتى تتصل بالآداب الفرعونية ، وتكون معيناً لآدابنا ، فانهم لا يستطيعون أن يوضحوا فكرتهم ، وأن يفهمونا ماذا يريدون بالرجوع إلى الآداب الفرعونية . ففكرتهم غامضة لا تصادف المجيبين .

إذن : فالأدب القومي يطالبنا بأن نتحدث عما نشعر به ويخالط حسنا ، وينفر من الخداع والرياء والتحدث عن بيئة لا تمت إلى بيئتنا بصهر أو نسب . والآن : بعد أن ذكرنا غاية الأدب القومي — كما يفهمه دعاته ، وكما يفهمه الباحثون — نتقدم لنرى : أتنافيه الوحدة العربية ، أو تمده بوسائل القوة والنهوض ؟ وإذا تحدثنا عن الأدب القومي ، بدا لمخيلتنا أدب يعبر عن أمانينا ، وآمالنا ، وعواطفنا ، ومشاعرنا ، ورأينا خلاله نوراً وإشراقا ، وقوة حافزة لنيل تلك المآرب والرغبات . فهل ترون من ذلك إلا أن الوحدة العربية التي تجول في نفوسنا ، ونرجو من الأيام نيلها ، لا تنافي الادب القومي ، ولا تعترض سبيله .. بل من الأدب القومي ، ان نذكر الوحدة وأن نتغنى بها ، وندعو إليها ، فهي أمنية غالية لدى أفئدتنا ونفوسنا ، ولا تطالبنا الوحدة العربية بأن نتحدث عن عواطفنا كما كان يتحدث العرب الأقدمون ، فانا لا ننكر أثر التطور الذي ألم بكل شيء في الحياة ، ولا تطالبنا كذلك بأن نجعل ادابهم المثل الأعلى لآدابنا ، فالمثل العليا تكون دائماً في المستقبل ، وإنا لنحمد للعرب ما خلفوه لنا من آثار هي أحاديث نفوسهم ، ورسم بيئتهم ، فاستطعنا أن نراهم خلال شعرهم النابع من طبيعتهم بلا تكلف أو شذوذ .

لا تطالبنا الوحدة العربية بأن نجعل آدابنا سائرة على وتيرة الأدب العربى القديم ، ذلك الأدب الذى كان يعبر عن نفوس : محدودة الآمال ، قليلة الرغبات ، وبيئة متشابهة متشاكلة ذات نغمة موسيقية واحدة . ولكن التقدم الذى وصلنا إليه ، والذى نبغى الوصول إليه ، يدعونا إلى أن نسير بآدابنا خطوة واسعة إلى الأمام ، ولا يضير الوحدة فى شىء تغنينا ببيئتنا ، وتحدثنا عن حياتنا ، كما لا يضيرها أن نشدو دائماً بذكر أجدادنا ، وما أقاموه فى البلاد من حضارة واسعة ، هى أم الحضارات ، وما شيدوه تحت الشمس من ملك ثابت الدعائم ، وطيد الأركان ، بل إن ذكر ذلك مضافاً إليه مجد العرب ، ودينهم ، وما سنوه من حكمة ، ومدنية ، كفيل بأن يلهب النفوس ، ويحيى الفؤاد والوجدان . ولا ننشط للوحدة من ذكر ما كان لنا من حضارة ثابتة ، سادت العالم ، وارتفعت إلى النجوم . وأحسب ان الداعين إلى الوحدة العربية ، لا يفكرون فى ان ينسى المصريون تاريخهم القديم ، فتاريخنا قطعة من فؤادنا لا نستطيع تركه ولا نسيانه ، وكم هو عظيم مجيد أن يكون تاريخنا حافلا بمجدين ، ساطعاً بشمسين : مجد الفراعنة ، ومجد العرب ، وشمس هؤلاء وأولئك ، فيزيدنا هذا : إقداما ، وعزماً ، وهمة وثباتاً .

يعز على الجارات ان يتحدث أدباء مصر عن الأدب القومى ، حاسبات أنا نضحى بعربيتنا بل ونغض من شأن العرب ، ونحمل فى انفسنا الموجدة والشنآن للفاتحين الذين ادخلونا ضمن الامبراطورية العربية ، وفاتهم أن مصر عربية بدينها ، عربية بلغتها ، ولا زالت اللغة والدين أكبر الروابط بين الأقطار الشقيقة . . ثم هناك الآمال والآلام التى وجدت بين قلوبنا ، وآخت إحساسنا وشعورنا ، واتحاد الثقافة الأدبية التى نستقى منها ، واتصال تاريخنا بهم فى القديم والحديث . والقول الجملى : إن مصر لا تستطيع أن تنسى جلال الوحدة العربية ، وإنها تمد يدها ، مؤمنة من كل قلبها ان سعادتها ونجحها ، لا يكونان إلا إذا شعرت دائماً بأنها من البلاد العربية الصميمة ، وأن قلبها ينبض بحب العرب مؤسسى : لغتها ، ودينها ، وهى مع إيمانها بذلك ، الايمان كله ، واطمئنانها إليه ، لا ترى فى دعوتها إلى ادب قومى ، خروجا ، ولا شذوذاً على الجماعة والوحدة . فلا زالت الآداب العربية أساس أدبنا ، ومنبع ثقافتنا ، ولا نريد أن نقول إلا أن هذه الآداب كانت تعبر عن نفسية الأمة العربية فى عهد مضى ، لم نكن قد وصلنا إلى ما وصلنا إليه فى عهدنا الحاضر من نهضة شاملة لكل فروع الحياة ، ولأن الزمن قد تطور ، يجب على الآداب أن تتطور ، لنسير جنباً إلى جنب مع حركة الحياة الدائمة النشاط . ولا نعنى ان تلك الآداب القديمة قليلة الجدوى ، أو عقيمة لا تنتج ، بل هى لا زالت أساسا نبنى عليه ، ونشيد فوقه الدعائم ، ولكنا نرى ان تلك الآداب كانت المثل الأعلى لتلك الأزمان السالفة ، صورت لنا الحياة فيها ، وحدثتنا عما كان يجول بقلوبهم يومذاك ،

ومن العبث إنكار ما صرنا إليه ، من حال يخالف ما كنا عليه، فاذا أبينا إلا أن ننكر اثر الزمن ، وتقلب العصور ، ولم نفكر فى السير بأدبنا إلى الرقى فانا سوف نصبح مقلدين لمن سلفوا ، لا نستطيع التعبير عما نحس به ونشعر ، فينهار ادبنا وتعفيه الأيام .

وإذن : فالدعوة إلى الأدب القومى إنما هى فى الحقيقة دعوة إلى ان نتبع الزمن ونسير معه ، وأن نصدر عن نفوسنا ، وقلوبنا ، وآمالنا الكبيرة ، وامانينا المشتركة ، فلايحسب دعاة الوحدة العربية ان المجددين يضمرون السوء لفكرتهم ، او يريدون نبذها وهدمها ، بل هم بدعوتهم إلى ادب قومى يعملون على إنجاحها ، وإنهاضها . وإنا لانحسب أولئك الذين يدعون إلى الأدب الفرعونى القديم ، يقصدون أن تنبذ مصر عربيتها ، بعد ان تغلغلت تلك العربية فى صميمها ، وبعد ان تشبعت ثقافتها بالثقافة التى جاء بها دين العرب ولغتهم ، ومن اى ناحية واجهت مصر وجدت العربية تطالعك منها.

بيد أنك تدهش لهؤلاء المغالين الذين يريدون نبذ العرب والعربية مروجين للون من الأدب لا نستطيع فهمه ، ولا إدراكه ، ومروجين للغة العامية على حسبان انها لغتنا القومية ، وإنا لا ننكر خطر تلك الفكرة المتطرفة التى تدعونا إلى نبذ تاريخ ملىء بالمجد مفعم بالجلال ، ثم نسير فى الحياة على غير هدى ولا منار .

أجل ، تلك هى الفكرة الخطيرة التى يقابلها المصريون بالاعراض والصدف ، لأنهم يعرفون مدى ما تسعى إليه ، من هدم لتلك الروابط المتينة التى تربط بيننا وبين الشقيقات ، فنصبح بمعزل عن العالم العربى الحبيب . وهل يحسب أولئك الداعون ان اللغة العامية التى تختلف الاختلاف كله فى كل قطر من الأقطار ، حتى ليتعذر على أبناء القطر أن يحدثوا أبناء الآخر بغير اللغة العربية الفصيحة التى حفظها القرآن على وجه الزمان ، هل يحسبونها إلا داعية الانحلال ، وآية الحبوط ؟ ومن هنا يبدو لنا التفكك والتخاذل، إذا جعلنا اللغة العامية لغة آدابنا القومية ، على أنها ستبيد أمام تيار العلوم الجارف يوم تصبح اللغة العربية لغتنا القومية ولغة الفن والتحادث...ونضيف إلى ذلك ان العامية لا تستطيع القيام بحاجاتنا ، ولا التعبير عن أفكارنا وإحساسنا ، فلنبعد تلك الفكرة العقيمة التى تودى بماضينا وحاضرنا ، وتقصم تلك الروابط القوية ، بين مصر العربية ، وجاراتها الشقيقة ، ولا خوف بعدئذ على الوحدة العربية من فكرة الأدب القومى ، لأنها فكرة ترمى إلى التطور ، وتدعو إلى السير مع الزمن، كيفما سار، وبعبارة اخرى: هى فكرة ترمى إلى احترام القديم والبناء عليه ، من غير اتخاذه مثلا أعلى ، وجعل الأدب وسيلة للتعبير عن شعورنا ، وإحساسنا ، وتصوير بيئتنا ، ومايحيط بنا ، ويغمر جونا .

كما أريد أن أشير إلى أن استثارة القديم ، والتحدث عن آداب الفراعنة لاتعنى نبذ العربية

بل هي تحدث بماض يحفزنا الى مشابهة الاولين ، وجاراتهم ، وتغن بسالف باهر ، هو ذخيرة الامم الناهضة ، ولا يقصد دعاة الادب القومي إلى ان يبثوا في نفوس النشء مايقصده المغرضون من إهمال التاريخ العربي ، بدعوى أنا نمت إلى (إيزيس واوزوريس) . وكل ما يدعون اليه هو ان يعرف الأبناء ما كان للاباء من مجد قوي متين ، حتى يعلموا أنه من العار عليهم التفريط فيما لهم من حضارة ، وإضاعة ماشادوه من مدنية ، لا يهتدى إلى سر بقائها الخلود .

فليدعنا أولئك الذين يزعمون ان في فؤاد مصر جرحا من العرب ، تريد أن تثأر به بعد أن أضاع الفاتحون استقلالها ، ولعبوا بحريتها ، ليدعونا وليثقوا بأنا سنظل عربا نشيد بمجدهم ونرفع من ركانهم ، وليثقوا بأن الوحدة العربية سوف تبرز الى عالم الوجود ، ويشد من أزرها الأدب القومي النزيه .

من ذلك كله نستطيع ان نخرج بنتيجة واحدة ، تلك هي : أن الوحدة العربية لا يحدها ويمنع نهوضها فكرة الادب القومي ، وإنما الحذر والخوف من أولئك الذين يعملون على جعل اللغة العامية ، لغة : فن وعلم ، على انهم في محاولتهم فاشلون .

وإنا لنعجب العجب كله لتلك الدعوة التي مبعثها — بلا ريب — نوع من حب المخالفة من غير ان يكون الداعي إلا اتباع الهوى والشقاق ، ولو علموا ان اللغة العامية ليست إلا لهجة من اللهجات التي تفرعت من اللغة العربية ، وعلموا ان كل مانستطيع التحدث عنه بالعامية في قدرة اللغة العربية ان تمدنا به ، وبخير منه ، وعلموا ان الفن واجمال إنما هو بين ثنايا العربية الفصيحة لآبوا موقنين بصحة ماذهبنا اليه ، وكفوا عن دعايتهم التي لا تجد أذنا تسمع ، او قلباً يطيع .

لا خوف على الوحدة إلا من أولئكم الدعاة الذين يهدمون ولا يبنون ، ويدعوننا إلى ترك لغة مليئة بعلم كان ينبوعا غزيراً استمد منه الغربيون حضارتهم ومدنيتهم ، أما دعاة الأدب القومي فلا خوف على الوحدة منهم ، لأنهم قوم مجددون ، يريدون أن يروا آداب لغتهم قوية ناهضة فهم الغيورون على العربية ، العاملون على إنهاضها ، العالمون بأن اللغة يجب أن يناط بها من التطور ماينال كل موجود ولا يريدون أكثر من ذلك ، وإذا نحن رجعنا إلى الحقيقة وجدنا أنفسنا مسوقين كرها إلى أن نسير في ذلك التيار الجارف الذي يدعو كل مافي الكون إلى الامام والمثل الأعلى ، فلتتقدم مصر إلى الامام حافظة لعربيتها متضامنة مع شقيقاتها بأدبها القومي ، وثقافتها المستمدة من تاريخها الناصع البياض .

ذلك ماأردت أن أتحدث عنه مبينا وجهة نظر دعاة الادب القومي ، تلك النكرة التي ظهر لنا جليا أن الوحدة العربية تسير معها ، وتهتدى بنورها ، وإنا لا نرفض يوما ما أن تمد يدنا الى الاقطار المجاورة التي لها عرق قديم في العربية فنتا خى بعد أن وحدت بيننا الرغبات والآلام ، والثقافة والتاريخ . فرحبا بالوحدة ، ومرحباً بالمجددين في الآداب الذين يأتون أن يروا لغتهم ضعيفة واهنة القوى ، بينما آداب اللغات الأخرى آخذة في سبيل النهضة والتقدم ، مواتية لهم في كل مايأتي به الزمن من جديد في الكشف والاختراع .

احمد احمد بدوى